طاعون سنة(٧٥٠و٨٥٠هـ/١٣٤٩-١٤٤٦م) في المصادر التاريخية الاندلسية والمغربية وأثره على الحركة العلمية

م٠د. مرتضى عبدالرزاق مجيد

م. د. حسين ابراهيم محمد

قسم الاجتماعيات/ كلية التربية الاساسية: عقرة/ جامعة دهوك

ملخص البحث:

ان ظاهرة الأوبئة والمجاعات والقحط في القرون الوسطى،وتكرار أحدثها في باطن الكتب التاريخية وكتب الرحلات والجغرافية والكتب الفقهية وكتب التراجم والبرامج العلمية والسير والمناقب والكتب الطبية،لاسيما في الاندلس والمغرب،استدعت الاهتمام بهذه الظاهرة ودراستها من كل المناحي بعد ان اختلف فيها المؤلفون مما دونوا احداثها،تبعا لظهورها واختفائها وشدة ما كانت تتركه من اثار مؤلمة في النفوس والتي كانت أول علامتها كثرة الموت وخلو المدن من سكانها ،الى جانب الاثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ،كانت السبب في دراسة وباء الطاعون من جانب المؤلفات الاندلسية التي كثيرا ما كتبت عن هذا الوباء أكثر من غيرها بشكل خاص أوعام في مصنفاتهم المتنوعة ، باظهارها ومن ثم التعريف بهذا المرض لغة واصطلاحا ، وبيان الأسباب المؤدية لانتشار تلك الاوبئة ،والتعريف بأهم وبائين ضربا الاندلس والمغرب ومدة الوباء ،ثم ذكر لأهم الأثار المترتبة على الوباء على الحياة العلمية والثقافية في ضوء كتاب رحلة القلصادي .

تمهيد :

شهد المغرب والاندلس في العصورالوسطى، شأنها شأن بقية البلدان في اوربا والمشرق الاسلامي موجات من الأوبئة ، كانت نتيجة ظروف قاسية

كالحروب،أو الكوارث الطبيعية من قحط وفيضانات،مما أدى الى نقص في الغذاء والمياه بالنسبة الى السكان،وكان لتلك الكوارث أثر في ظهور العديد من الأوبئة والأمراض،التي تركت أثارا مدمرة على تلك البلدان بما فيها الانسان،اذ حصدت ارواح الألوف من الناس تاركة اثارا مباشرة وغير مباشرة على كل نواحي الحياة.

تتضمن الدراسة وباء عامي (٧٥٠ــ٨٥٠هـ)،الذي أصاب كلاً من الأندلس والمغرب في القرن السابع والثامن الهجريين،والذي امتد تاثيره الى بقية الأصقاع،وترك اثارا سلبية على الحياة العامة،سنكتفي في هذه الدراسة بالحديث عن اثاره على الحركة العلمية في المغرب والاندلس على حد سواء،على اعتبارهذا الوباء من أشد الأوبئة خطرا,والتي كانت تعصف وتحصد أرواح البشر،وأختلف الناس في تقدير ذلك الوباء(١).

أولا ــ أهم المصنفات الأندلسية في الوباء:

١ــ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية،لابن البيطار المالقي(ت:٦٤٦هـ/١٢٤٨م)وهو عبارة عن معجم ذكر فيه ابن البيطار مختلف الاعشاب والادوية المستعملة لمعالجة الأمراض،وقد أشار الى العديد من النباتات الطبية التي تنبت بالمغرب والأندلس،وفوائدها الطبية(٢).

٢ــ تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد،لابن خاتمة المري الأنصاري(ت:٧٧٠هـ/١٣٦٩م)،ذكر فيه ابن خاتمة وباء سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذي ضرب الأندلس والمغرب،مبتديا بالتعريف بالوباء وذكر أسبابه،ثم الحديث عن هذا الوباء ومصدره،ومناطق انتشاره، ذاكرا بالتفصيل عدد الوفيات بالوباء في المرية وتلمسان على سبيل المثال،كما أنه تحدث عن كيفية انتشاره،وسبل تجنب الوباء (٣).

٣ــ ولما توفي ابن الجياب شيخ ابن الخطيب في طاعون سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م) خلفه ابن الخطيب(ت:٧٧٦هـ/١٣٧٤م) في رياسة ديوان الإنشاء، ومنحه

السلطان أبو الحجاج رتبة الوَزارة وألقابها، كتب لسان الدين عدداً من الرسائل المتنوعة منها في هذا المجال الأول: رجَز في الأغذية (أو أرجوزة الأغذية)، وتقع في حوالي مائتين وألف بيت، عرَضَ فيها الناظمُ الأغذية مرتّبَة على حروف المعجم، وذكر طبائعَها ومنافعها ومضارّها وإصلاح خللها .وكتابه الثاني ،عمل مَن طبّ لمن حبّ، وهو كتاب طبيّ ضخم نشرته المستعربة الإسبانية مارية دي لاكونثيثيون، في العام ١٩٧٢، تطرق فيه ابن الخطيب إلى مختلِف الأمراض مستعْرضاً أسبابَها وأعْراضها وسبلَ علاجها ونظام الغذاء المناسب لكلٍّ منها. كما تحدث فيه عن شتى أعضاء الجسم، وطرق الاعتناء بها. وقد ألفه صاحبُه عام ٧٦١هـ، خلال إقامته الأولى بفاس، وأهداه إلى السلطان أبي سالم المريني، الذي كانت أفضاله على ابن الخطيب كثيرة؛ لذا فقد أشاد به في ديباجة الكتاب بعبارات رنّانة، مصرِّحاً بأنه لم يَجد، لرد جميل أبي سالم، خيراً من الطب الذي يحفظ الصحة، ومنه الدين والدنيا. وله تأليفٌ آخرُ شبيهٌ بهذا من عدة وجوه، عنوانُه الوصول لحفظ الصحة في الفصول، كتبه في غرناطة، عام ٧٧١هـ، لسلطانها أبي عبد الله محمد الخامس النصري، وهو من تواليفه الطبِّية التي وصلتنا(٤).

أما المؤلف الآخر فهو مقنعة السائل عن المرض الهائل، وهو عبارة عن رسالة طبّية وصحية من نوع خاصّ، ألفها لسان الدين عن الطاعون الخطير الذي اكتسح الأندلس وجُلّ مناطق العالم الإسلامي سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م). وفيها يصف ظروف ظهور هذا الوباء، وسرعة انتشاره، وأماراته الأولى، وسُبَل التحوُّط منه. كما عرّفنا فيها بوباء الطاعون، مبرزاً أسبابه ، وموضحاً آثاره على مستوى بدن المصاب به، وطرق المعالجة منه، وانتقد بعضَ التصورات البعيدة عن مفهوم القدر واثبت وجود العدوى،وعاب على القائلين بعدم وجودها(٥). وقد ذكرها ابنُ الخطيب، ضمن الترجمة التي كتبها لنفسه في آخر إحاطته، هذه الرسالة باسم رسالة الطاعون.

٤ــ فضلا عن ذلك هناك مصادر أخرى لأتقل أهمية عما ذكرناه منها مخطوطة مارواه الواعون في أخبار الطاعون(٦)،ومخطوطة شفاء السقيم فيما ينتفع به في زمن الوباء والوخم (٧)،ومخطوطة رسالة في معالجة الوباء قبل نزوله(٨).

ثانياــ مفهوم الوباء لغة واصطلاحا:

ان الوباء كمصطلح واضح الدلالة والمعاني،لم يكن موحد الاستخدام في المصادر التاريخية الاسلامية،وان كانت تلك المصادر تغطي الأحداث التاريخية للأمم والشعوب،فالمصادر التاريخية في كثير من الأحيان...؟! كانت حوادث الوباء تندرج ضمن الأحداث التاريخية حتى وان كانت كوارث طبيعية مثل السيول والقحط والثلوج وغيرها من الحوادث.

لقد كان الجانب الديني يطغى على تلك الأحداث،مصبوغة بصبغة دينية ولقد تواترت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في ذلك , أن المصائب التي تنزل بالعباد بسبب ذنوبهم ، قال تعالى:{ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } الروم : ٤١ ، أي استعلن الفساد في البر والبحر أي فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها. وقوله تعالى : { فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون } العنكبوت:٤٠ . تلكم الذنوب وتلك عواقبها ، وما هي من الظالمين ببعيد. ما ظهرت المعاصي في ديار إلا أهلكتها..ولا تمكنت من قلوب إلا أعمتها..ولا فشت في أمة إلا أذلتها . وما ورد في كتب الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله:"اتاني جبريل عليه السلام بالحمى والطاعون ،فامسكت الحمى بالمدينة وارسلت الطاعون الى الشام،والطاعون شهادة لامتي ورحمة لهم،ورجز عن الكافرين"(٩).

فالوباء عند أهل اللغة يعني: بأنه كل مرض عام يمد ويقصر،وجمع المقصورة أوباء،وجمع الممدودة أوبئة،وقد وبئت الأرض توبا فهي موبوءة اذا كثر مرضها (١٠)، أما مفهوم الوباء اصطلاحا،فقد اتفق الجميع ممن تحدثوا عن الوباء كالأطباء أو المؤرخين الذين دونوا بعض أحداث الأوبئة في مؤلفاتهم،بأنه المرض الذي يعم أهل البلد بسبب فساد الهواء،فيذكر الطبيب ابن زهر الاشبيلي(ت:٥٢٥هـ/١١٣٠م)،بأن الناس في الأندلس والمغرب قد اعتادوا على اطلاق اسم الوباء على الأمراض التي تصيب أهل بلد من البلدان ويشمل أكثرهم،ولهذا اذا كان الهواء فاسدا عم المرض في ذلك البلد(١١).

ويذهب ابن خاتمة الانصاري بالقول: "بأنه مرض عام للناس قتال غالبا عن سبب مشترك"ووصف الطاعون بالقروح السوداء(١٢)،أما الوزير لسان الدين ابن الخطيب يقول عن الوباء:"هو مرض حار حاد السبب سمي المادة يتصل بالروح بواسطة الهواء ،ويسري في العروق،فيفسد الدم ويحيل الرطوبات الى السمية وتتبعه الحمى ونفث الدم،أو يخرج عنه خراج من جنس الطواعين"(١٣) ،بينما استخدم ابن خلدون (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) للدلالة على الوباء كلمة الموتان،والذي يعني جميع المرض الذي يصيب الانسان والحيوان معا،قائلا:"فاذا كان الفساد قويا،وقع المرض في الرئة،وهذه هي الطواعين وأعراضها مخصوصة بالرئة"(١٤).

وعلى العموم فقد اتفقت كل المصادر الاسلامية على ان الوباء مرض عام يحدث بسبب فساد الهواء،رغم ان المصادر الاخبارية التي كتبها المؤرخون لم تفرق بدقة بين الوباء الذي يحدث بسبب فساد الهواء وبين مرض الطاعون (الجذام)كما حدث سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)،مما جعل مسالة تحديد ماهية المرض الذي حدث كما توردة المصادر التاريخية امرا محيرا بسبب عدم التحديد بدقة(١٥).

فالوباء في كتب السير والمناقب نراه يختلف عما كتبه المؤرخون وما ورد في كتب التراجم،يختلف عما في كتب النوازل الفقية والمسائل،ففي الأول لايرد اسم الوباء الاعند وفاة أحد الشيوخ الصلحاء والأولياء،بأن صاحبه توفي بذلك الوباء وأن له في ذلك ثوابا حسنا،بينما في كتب التراجم والتاريخ يأتي خبر الوفاة في داخل تلك التراجم والأحداث بشكل اخر،فالوباء على سبيل المثال في نظر ابن خلدون،دخل من منظور علم الاجتماع ،باعتبار الوباء حدثا ملازما لاعمار الدول والأمم بسبب الكوارث(الحروب والقحط والسيول والمجاعات)،وانها عارض يصيب الأمم التي أخذت بالاضمحلال والتدهور،كعلامة على قرب زوال تلك الأمة ونهايتها، بسبب كثرة العمران الذي عده من أسباب الحضارة ورقي الأمم،وازدحام السكان مما يرافقه فساد الهواء،أي أن الوباء في نظره كان في الحضر والعمران اكثر من البوادي والارياف ،اذا ما علمنا أن ابن خلدون كان ضحية الوباء عانى هو نفسه منه، عندما توفي والداه واغلب شيوخه في وباء اواخر سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)(١٦).

وفي التراجم يرد عند ذكر وفاة الشيوخ والعلماء وحضور تشييعه ودفنه عددا كبيرآ من الناس بما فيه الحكام والسلاطين(١٧)،أما الوباء في كتب النوازل نراه بشكل يختلف عن ماسبق ذكره، فنراها تتكلم عن الوباء بشكل أسئلة يجيب عنها الفقهاء شانها شأن كثير من المسائل العامة التي يستفتي الناس فيها عن الأجوبة(١٨). فكان الوباء هو الخطر الثاني الذي يتهدد أهل الأندلس،من بعد خطر النصارى الاسبان الذي كان يضغط باستمرار على أراضي المسلمين منذ اواخر عصر الخلافة الاموية بالاندلس(٤٢٢هـ/١٠٣٠م).

ثالثا ــ المناخ (فساد الهواء) وأثره في انتشار الأوبئة:

بالرغم من أن الأوبئة والطواعين ضمن الافات السماوية والعاهات التي لايد للانسان فيها بل هي من مشيئة الله سبحانه تعالى،الاأن التآليف الطبية التي كتبت عن الطب النبوي،قد رصدت جملة من الأسباب منها طبيعية ومناخية ومنها

روحانية ومنها مايكون ناتجا عن الحروب والمجاعات(١٩). حيث يلعب المناخ حتى اليوم الدور البارز في انتشار الأوبئة والأمراض وانتقالها من مكان الى اخر،كما اثبتت ذلك الدراسات الحديثة،وكان الجغرافيون المسلمون سباقين في ذلك عندما قسموا العالم الى أقاليم مناخية منها مايصلح للسكن ومنها لايصلح للسكن ،يعد العلامة ابن خلدون أول من أشار الى المناخ وأثره على نشأة العمران،وتاثيره في طبائع الناس وعاداتهم وسلوكهم(٢٠).

فالسبب الرئيسي لفساد الهواء في نظر الاطباء المسلمين يكون بسبب الحرارة والرطوبة والعفونة التي تورث الخمول والضعف في الجسم، مما ينتج عنه الوباء كما عبر عنه ابن خلدون:"الوباء سببه في الغالب فساد الهواء لكثرة مايخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة"(٢١)،فالتنوع الجغرافي لأقاليم الأندلس والمغرب وتأثير الرياح القادمة من البحار والصحاري ،وسقوط الأمطار الغزيرة والمفاجئة في فصل الصيف كان له الأثر في فساد الهواء وتعفنه،مما يعقبه أمراضا مثل الحمى وظهور الأمراض الوبائية والطواعين،خاصة في أواخر فصل الصيف الذي تكثر فيه العفونة والأبخرة(٢٢).

ويذهب بعض المؤرخين ممن عنوا بالفلك بعكس الاطباء والجغرافين ،الى أن الوباء الذي يعم البلاد يرجع الى أمور فلكية كاجتماع الكواكب واتصالها مع بعضها البعض،كاجتماع المريخ وزحل في البروج النارية،مما يجعل ذلك سببا أقوى لظهور الوباء في نظر الوزير لسان الدين ابن الخطيب قائلا:"سبب أقصى وهو الامور الفلكية من القرانات التي تؤثر في العالم حسب مايزعمه ارباب صناعة النجوم ويأخذه الطبيب مسلما عنهم"(٢٣)،أي أن الأطباء في بعض الأحوال كانوا الى جانب التشخيص يأخذون بقراءة الأبراج والازياج لتفسير بعض الظواهر وحدوثها مثل الأوبئة.في حين ربط البعض الاخر ظهور الوباء وانتشاره بظهور نجم الثريا وسقوطها،فاذا سقطت الثريا وغابت تكثر الأمراض والطواعين،واذا طلعت ترتفع كل الأمراض والعاهات عن كل قطر(٢٤).

رابعاــ وباء الطاعون في القرنين السابع والثامن الهجريين وانتشاره:

أشارت المصادر التاريخية وكتب التراجم،التي تناولت بين طياتها الحديث عن الأوبئة في الأندلس والمغرب،عن شدة الوباء وحجم الموت في السكان،وحجم الأضرارالتي اصاب الحواضر والبوادي، وكانت واضحة المعالم على الجانب الاقتصادي والعمراني والسكاني،وان كان الحديث في تلك المؤلفات عن الوباء يأتي بشكل عارض ضمن أحداث السنين مثل طاعون سنة٧٤٩هـ الذي عم الأندلس والمغرب والعالم كله:"ثم جاء الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه..."(٢٥).

ومن المؤسف ان تلك المصادر التي ذكرت هذه الاوبئة لاتفصل الحديث حول طبيعة تلك الاوبئة(نوعها) لعدم تفريقها بين الوباء والطاعون،حتى بعد سقوط الأندلس بيد النصارى الاسبان ظلت الاوبئة منتشرة بين الناس وانتقالها سهلا،بسبب الحملات الاسبانية والبرتغالية على سواحل المغرب عن طريق الجند مثلما حدث عندما نقل الغزاة الاسبان الوباء الى العالم الجديد الامريكيتين عندما اكتشفوا ذلك وراح ضحيته الهنود (السكان الاصليين). فعلى سبيل المثال كان من أصعب الأوبئة التي انتقلت من الأندلس الى المغرب في أواخر القرن ٩هـ/١٥م ذلك الوباء الجلدي المعروف بالزهري(داء الافرنج)،والذي انتقل الى المغرب عن طريق اليهود الذين تم طردهم مع الموريسكين من غرناطة وبقية الأندلس أيام الملك فرديناند، وامتدت اثاره الى الحيوانات التي كان الناس يربونها في بيوتهم فساهم ذلك في سوء أحوالهم المعيشية(٢٦).

ويعد طاعون سنة(٧٤٨ـــ٧٥٠هـ/١٣٤٨ـــ١٣٤٩م) المعروف بالطاعون الكبير(العظيم)، من أعظم الطواعين التي ضربت العالم القديم في القرون الوسطى،فقد امتد حتى شمل الحوض الغربي للبحر المتوسط ، كان مصدر وباء الطاعون في الشرق في بلاد الخطا(الصين باللسان الاعجمي)،كما يذكر ابن خاتمة بحسب مانقله من بعض التجار النصارى الذين قدموا الى مدينة

المرية ثغر الأندلس على الساحل الشرقي(٢٧)،وبداية حدوث الوباء كما يذكر ابن الخطيب انه ابتدأ سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٤م)،بحسب مانقله عن ابن بطوطة الرحالة(٢٨)،اي ان المرض انتقل من بلاد الصين عبر طريق الحرير غربا بواسطة القوافل التجارية وحركة التجار.

أذ انتقل الوباء من الشرق عن طريق القوافل التجارية والحجاج، بشكل سريع وعم أغلب أمم العالم أنذاك،منتقلا من بلاد الصين الى بلاد الترك والعجم،ومنها الى أرض الحبشة ومصر والشام سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)،ومن ثم الى العراق والبصرة سنة(٧٥٠هـ/١٣٣٩م)،وعن طرق التجارة البحرية انتقل عبر بحر الخزر وبحر الروم الى الدولة البيزنطية، ومنها الى مواني جنوب أوربا وجزرها ووصل الى مسينة سنة(٧٤٧هـ/١٣٤٧م) ثم نابولي وبيزة وجنوة ومرسيليا والبندقية والاسكندرية سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)،حتى بلغ بلاد الفرنجة في شمال الأندلس ومنها دخل الاندلس،وانتقل عبر جزر بحر الروم مثل صقلية الى افريقية سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ومنها عم بلاد المغرب(٢٩). ومنها عم العالم كله كما يصف لنا ابن خلدون الذي عاصر ذلك الوباء العظيم قائلا:"وتحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران..."(٣٠)،كما قدم لنا ابن خاتمة الأنصاري هو الاخر الذي عايش الوباء وصفا دقيقا لأعراض هذا الوباء القاتل(٣١).

ونظرا لكونه كان حدثا بارزا ومؤلما أصاب العالم أنذاك،اختلف في تسميته من بلاد الى أخرى في الشرق والغرب(٣٢)،واختلفت المصنفات الاسلامية أيضا في الحديث عنه سواء كانت ضمن المصنفات التاريخية كأحداث سنوية،أومصنفات طبية أثارها الوباء للتأليف عنه،او في تراجم وسير ومناقب الشيوخ والعلماء الذين توفوا في الوباء،أو بيد رحالة دونوا شيئا من اخباره.

أما طاعون سنة(٨٤٥ـ٨٥٦هـ/١٤٤١ـ١٤٥٢م)،فهو بعكس طاعون سنة(٧٤٨هـ) الذي ضرب الاندلس والمغرب معا ووصفه كلا من ابن خاتمة

الأنصاري وابن الخطيب وابن خلدون وغيرهم من المؤرخين والأطباء،نلاحظ بأن هذا الوباء كان تأثيره على الأندلس قليلا بالقياس الى المغرب الذي اقتصر تأثيره عليه،لذلك لم يحظ باهتمام وعناية المؤرخين الأندلسين سوى اشارات أوردتها عنه كتب الرحلات العلمية والتراجم لاترتقي الى المستوى المطلوب من المعلومات المهمة كما في الطاعون الكبير، مجرد خبر وباء أصاب المغرب ،هلك فيه بعض الفقهاء والشيوخ أورده بعض الرحالة الأندلسيين أمثال القلصادي(ت: ٨٩١هـ/١٤٨٦م) ،الذي ارتحل الى المشرق زمن الوباء طلبا للعلم لذلك ظل مجهولا هذا الوباء سوى ما نقله عنه بعض الرحالة وطلبة العلم الذين تاثروا به .

أما بالنسبة للمؤرخين المغاربة فهم أيضا لم يذكروا الشئ الكثير عن الوباء سوى معلومات مقتضبة، عدا كونها وبائين متعاقبين أحدهما بعد الاخر،الأول اطلقوا عليه تسمية بـ تقصيص الضفرة(٣٣)،والثاني بـ وباء عزونة(٣٤)،على أن هاتين التسميتين هما الاخريين لايعرف عنها شئ هل هي اسماء مجازية أم اسماء أشخاص أوأماكن بدأ فيها الوباء؟.

خامسا ــ الاثار السلبية لوباء الطاعون على الحياة العلمية:

كان ظهور الوباء وانتشاره في القرون الوسطى حدثا وخيما على المجتمعات أنذاك،لما تركه من أثار كارثية تتمثل في موت عدد كبير من الأهالي بمختلف طبقاتهم، ونقص السكان وتوقف الحياة في تلك المدن لفترة طويلة قبل أن تسترد عافيتها من جميع نواحي الحياة العامة كما هو معلوم , وسنكتفي هنا بذكر الأثار السلبية المترتبة على الحياة العلمية والثقافية للأندلس والمغرب بصور مختصرة.

قبل بيان تلك الاثار وجب تبيان موقف الفقهاء من ذلك، فقد ورد في السنة النبوية عن السيدة عائشة رضي الله عنها،عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله:"عذاب يبعثه الله على من يشاء،وان الله جعله رحمة للمومنين،ليس من أحد

يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لايصيبه،الاماكتب الله له لا كان له مثل أجر الشهيد"(٣٥)، ورغم اختلاف الفقهاء في مسالة ألفرار من الأرض الموبؤة على اعتبار ان الذي يصبر عليه ولايفر يكون أجره كالشهيد،والفارمنه كالفارمن الزحف لملاقاة الأعداء،كما ورد في صحيح السنة والاثار(٣٦).....؟!!

فقد أدى وباء سنة(٨٤٥ـ٨٥٦هـ)،الى انقطاع السبل أمام أهل الأندلس الذين كان النصارى الاسبان قد احكموا الخناق على مملكة غرناطة آخر معقل للمسلمين وأخذوا بالتضييق عليهم ،فلم يبق لهم من سبيل مع المغرب سوى المجاز (جبل الفتح) للمتاجرة والحج وطلب العلم عبرها،فأدى الى تراجع حركة انتقال الحجاج وطلبة العلم والرحالة نحو المشرق وبالعكس،فعندما كان الوباء يضرب أحد المدن على طريق الرحلة كان الحجاج والمرتحلون يضطرون الى أستبدال الطريق بطرق أخرى بعيدا عن المناطق الموبؤة أوسلوك طرق نائية صحراوية يندر فيها الماء ويكثر فيها قطاع الطرق من الأعراب،كما كان له الاثر في موت الكثير منهم بسبب الوباء اوبسبب انقطاع السبل بهم بعيدا عن الأندلس.فقد انقطع في تلك الطرق الحاج وطالب العلم عن بلده وأهله لفترة طويلة من الزمن بعد أن ينفذ منه المال ومؤنة الرحلة على أمل أن ينتهي الوباء.

فعلى سبيل المثال يذكر العبدري في رحلته الشهيرة ماحصل له خلال ذلك خلال مروره بمدينة تلمسان سنة(٦٨٨هـ/١٢٨٩م) في ركب من الحجاج الأندلسيين والمغاربة،كان قد وجد المدينة في طريق العودة في حالة يرثى لها من كثرة الموتى في الطرقات وضعف حال الأهالي بسبب القحط والوباء الذي أصابها،فلم يستطع القائم بأمر المدينة والأهالي من استقبال وضيافة الحجيج،فكان سببا لتغير القوافل طرق المرور بها (٣٧) ،ومن ناحية أخرى كان ظهور وباء الطاعون وانتشاره مع قلة المعرفة بطرق الوقاية منه، أشد فتكا بفئة الأطفال والشيوخ الذين كانوا اكثر الفئات عرضة للوباء،فكان ذلك سببا في اغلاق الكثير

من الكتاتيب والمساجد حلقاتها أما بسبب اصابة الصبيان بالوباء وعدم ارتيادهم الكتاتيب والحلقات،أوبسبب موت الشيخ وعدم وجود من يحل مكانه فكان ذلك خسارة كبيرة لأهل البلد وللحركة العلمية، خوفا من العدوى وخلوها من روادها.كما كان هناك من يسعى الى الفرار من الوباء بنفسه وأهله خوفا من الوباء،كما هو الحال مع ابن خلدون الذي اضطرالى الترحال عن مدينته بعد أن هلك أغلب شيوخه في الوباء(٣٨).

كما كان موت الشيوخ سببا آخر في انقطاع ارتياد المرتحلين للعلم الى المدن الاخرى وتأخر الأجازات العلمية أو انقطاعها مثلما حدث مع القلصادي الذي أكمل علومه في مصر لكن وفاة شيخه ابن حجر العسقلاني حال دون أن يجيزه، وان كان موت شيخه موتا طبيعيا ولم يكن هناك وباء في مصر كما يذكر القلصادي،فكيف كان حال البلاد الموبوءة وطلبتها(٣٩)،ومن مجموع الشيوخ الذين اخذ عنهم القلصادي نجد منهم من توفي بالوباء كما يذكر منهم الفقيه ابو الحسن علي بن عبدالعزيز البسطي توفي في وباء سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م)،الفقيه ابو عبدالله القسطرلي توفي في وباء سنة(٨٤٤هـ/١٤٤٠م)،الفقيه أبو الحسن علي بن موسى بن عبيدالله اللخمي الشهير بالقرباقي،توفي في زمن الوباء في بسطة سنة(٨٤٤هـ/١٤٤٠م)،والفقيه ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل الشهير بالزيدوري توفي في وباء سنة(٨٤٥هـ/١٤٤١م)،الفقيه ابو العباس احمد بن محمد بن عبدالرحمن المغراوي الخزري الشهيربابن زاغو،توفي في وباء سنة(٨٤٥هـ/١٤٤١م) دفن بخارج المدينة بطريق العباد،بعد أن صلى عليه بعد صلاة الجمعة في الجامع الاعظم،وكانت له جنازة عظيمة حضرها الخاص والعام،واسف الناس لفقده،والفقيه ابو الفضل قاسم العقباني،توفي سنة(٨٥٤هـ/١٤٥١م) وصلي عليه بالجامع الأعظم قبل أن يدفن ،وكانت له جنازة عظيمة حضرها السلطان مما دونه، وكان القلصادي قد لازم العقباني بعد وفاة شيخه ابن زاغو(٤٠). ورغم موت هولاء الفقهاء وخسارة علومهم ورغم الوباء

يلاحظ بأنه كانت جنازاتهم يحضرها حشد كبير من الناس من العامة والخاصة تقديرا لمنزلتهم الكبيرة. كما ذكر ابن الخطيب في احاطته بعض التراجم الذين توفوا بالوباء ،والمقري في نفح الطيب وازهار الرياض في اخبار القاضي عياض لم ناخذ بها لعدم الاطالة في تلك التراجم.

الهوامش والاحالات:

(١) سميرة المزكلدي،المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط(٥٣٤ـ٧٧٦هـ/١١٣٩ـ١٣٧٥م)،اطروحة دكتوراه،جامعة سيدي محمد بن عبدالله،كلية الاداب والعلوم الانسانية،فاس،٢٠٠٤،ص٥٠ ومابعدها.

(٢)ـ مخطوطة المكتبة الوطنية الجزائرية،رقم ١٧٦٧،ص١ـ١٨.

(٣)ـ عبدالكريم الخطابي،الطب والاطباء في الأندلس الاسلامية،بيروت ،دار الغرب الاسلامي،١٩٨٨: ١/١٥١ـ١٨٦.

(٤) حسن الوراكلي،لسان الدين ابن الخطيب في اثار الدارسين(دراسة وبيبلوجرافيا)،المغرب،مجلة كلية الاداب بتطوان،العدد٢،السنة١٩٨٧،٢،ص١١٣؛رابحة المغراوي،كتاب الاحاطة بأخبارغرناطة للسان الدين ابن الخطيب(٧١٣ـ٧٧٦)منهجية التاليف والتصنيف(دراسة تحليلية)،مجلة افاق الثقافة والتراث،العدد٢٠ـ٢١،السنة١٩٩٨،٥،ص١٨٢،١٨١.ينظر كتاب عمل طب لمن حب، تحقيق:ماريا كنثيون قاثكز بنيتو،مدريد،جامعة شلمنقة، ١٩٧٢.

(٥) منشورات معهد العلوم العربية الاسلامية،المانيا،جامعة فرانكفورت،١٩٩٧،ص٣٨/٩٣ـ٤٨.

(٦)ـ نسخة مصورة عن مخطوطة،برقم١٥٤٤،عن موقع يوسف زيدان للتراث للمخطوطات www. Zeidan.com.

(٧)ـ نسخة مصورة عن مخطوطة المكتبة الوطنية بالجزائر،برقم٥٣٢.

(٨)ـ مخطوطة مكتبة البلدية بقرطبة،برقم٢٨٤٣٩،نسخة مصورة عن موقع يوسف زيدان للتراث والمخطوطاتwww.zeidan.com.

(٩)ـ أحمد بن حنبل،المسند الصحيح،القاهرة،مؤسسة قرطبة،د.ت:٥/٨١ الحديث ٢٠٧٨٦.

(١٠)ـ محمد بن مكرم بن منظور،لسان العرب،بيروت،دار صادر،١٩٦٨: ١/١٩٠،١٨٩.

(١١)ــ أبو مروان بن أبي العلاء بن عبد الملك،كتاب الأغذية،تحقيق:اكبيراتيون غارثيا،مدريد،المجلس الأعلى للأبحاث العلمية بمعهد التعاون مع العالم العربي،١٩٩٢،ص١٣٤.

(١٢)ــ تحصيل غرض القاصد،ص١٨١،١٦٢.

(١٣)ــ مقنعة السائل،ص٣٨.

(١٤)ــ عبدالرحمن بن محمد بن خلدون،المقدمة،تحقيق:محمد الاسكندراني،بيروت،دار الكتاب العربي،٢٠٠٦،ص٢٨٢.

(١٥)ــ ابن خاتمة الأنصاري،تحصيل غرض القاصد،ص١٨١،١٦١.

(١٦)ــ عبدالرحمن بن محمد بن خلدون،التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا،تحقيق:محمد بن تاويت الطنجي،بيروت، دار الكتب العلمية،٢٠٠٤،ص٦٥،٦٤.

(١٧)ــ أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي،رحلة القلصادي،دراسة وتحقيق:محمد ابو الأجفان،تونس،الشركة التونسية للتوزيع،١٩٨٥،ص٩٨.

(١٨)ــ أحمد بن يحيى الونشريسي،المعيار والمعرب والجامع المغرب عن علماء افريقيه والأندلس والمغرب،اشراف:محمد الحجي،بيروت ،دار الغرب الاسلامي ١٩٨١، ١٢: /؛محمد فتحة،النوازل الفقهية والمجتمع،أبحاث في تاريخ الغرب الاسلامي من القرن٦الى ٩،الدار البيضاء،منشورات كلية الاداب،جامعة الحسن الثاني،١٩٩٩،ص٣٢ــ٣٧.

(١٩)ــ مزدور سمية،المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط(٥٥٨ــ٩٢٧ه/١١٢٩ــ١٥٢٠م)،رسالة ماجستير،قسنطينة،كلية الاداب والعلوم الانسانية،٢٠٠٩،ص١١٨.

(٢٠)ــ المقدمة،ص٩٢،٩١.

(٢١)ــ المقدمة،ص٢٨٢؛ابن خاتمة،تحصيل غرض القاصد،ص١٧١،١٦٩.

(٢٢)ــ ابن زهر،التيسير في المداواة والتدبير،ص٤٥٣،٤٤٩؛ابن زهر،كتاب الاغذية،ص١٤٣؛ابن خاتمة،تحصيل غرض القاصد،ص١٧٠.

(٢٣)ــ مقنعة السائل عن المرض الهائل،ص٣٨.

(٢٤)ــ محمد الانصاري التلمساني بن الرصاع،الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية،تحقيق ودراسة:محمد حسن،بيروت،دارالمدار الاسلامي،٢٠٠٧،ص١١٩،١١٦.

(٢٥)ــ محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي بن بطوطة،تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،تحقيق:عبد الهادي تازي،بيروت ،مؤسسة الرسالة،١٩٨٥:

١٦١/1؛عبدالرحمن محمد بن خلدون،العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشان الأكبر،بيروت،دار الكتاب اللبناني،١٩٨٣: ٧١٣/٦. يذكر ابن بطوطة بهذا الخصوص عند حديثه مدينة دمشق عندما انتشر الطاعون الاعظم في البلاد في اواخر ربيع الثاني سنة تسع واربعين هواجتماع الناس للصلاة بجامعها الاعظم بناء على ملك الامراء نائب السلطان ارغون شاه أمر مناديا ينادي بدمشق ان يصوم الناس ثلاثة ايام,ويطبخون بالسوق.فصام الناس ثلاثة ايام متوالية,كان اخرها يوم الخميس.ثم اجتمع الامراء والاشراف والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع,حتى غص بهم.وباتوا ليلة الجمعة مابين مصل وذاكر وداع.ثم صلوا الصبح،وخرجوا جميعا على اقدامهم,وباياديهم المصاحف,والأمراء حفاة.وخرج جميع اهل البلد,ذكورا واناثا,صغارا وكبارا,وخرج اليهود بتوراتهم،والنصارى بانجيلهم،ومعهم النساء والولدان.جميعهم باكون متضرعون الى الله بكتبه وأنبيائه.وقصدوا مسجد الاقدم,وأقاموا به في تضرعهم الى قرب الزوال وعادوا الى البلد,وصلوا الجمعة.وخفف الله تعالى عنهم بعدما انتهى عدد الموتى الى ألفين في اليوم الواحد.وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين الفا في يوم واحد.

(٢٦)ــ الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي،وصف افريقيا ،ترجمة:محمد حجي ومحمدالاخضر،ط٢،بيروت،دار الغرب الاسلامي،١٩٨٣: ٨٤/١.

(٢٧)ــ تحصيل غرض القاصد،ص١٧٣.

(٢٨)ــ مقنعة السائل،ص٤٥.

(٢٩)ــ ابن خاتمة،تحصيل غرض القاصد،ص١٣٧؛محمد امين البزاز،الطاعون الاسود بالمغرب في القرن ١٤م، الرباط ،مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية ،العدد١٦،١٩٩١،ص١١٠.

(٣٠)ــ المقدمة،ص٣٨.

(٣١)ــ تحصيل غرض القاصد،ص١٦٥،١٦٤.

(٣٢)ــ الخطابي ،الطب والاطباء:١٤٩/٢.

(٣٣)ــ أبو العباس احمد بن ابي العافية المكناسي بن القاضي،لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد،تحقيق:محمد حجي،ضمن موسوعة اعلام المغرب،بيروت،دار الغرب الاسلامي:٧٦١/٢،٧٥٢.

(٣٤)ــ ابن القاضي،لقط الفرائد:٧٦١/٢،٧٥٢؛ رحلة القلصادي،ص٩٨.

(٣٥)ــ ابوعبدالله محمد بن اسماعيل البخاري،الجامع الصحيح المختصر،ط٣،تحقيق:مصطفى ديب،بيروت،دار ابن كثير،١٩٨٧: ٣/١٠٤١ الحديث٢٦٧٥.

(٣٦)ــ ابن حنبل،المسند:٦/٢٥٥ ،الحديث ٢٦٢٢٦.

(٣٧)ــ محمد بن محمد بن علي بن احمد بن مسعود ،ما سما اليه الناظر المطرق في خير الرحلة الى بلاد المشرق،نشر بعنوان الرحلة المغربية،تحقيق:محمد بن جدو،الجزائر،منشورات كلية الاداب،د.ت،ص٩.

(٣٨)ــ ابن خلدون،التعريف بابن خلدون،ص٦٤،٦٥.

(٣٩)ــ رحلة القلصادي،ص١٥٣.

(٤٠)ــ الرحلة،ص١٠٧،١٠٦،١٠٢،١٠١،١٠٠،٩٠،٨٧،٨٤،٨٣.

Abstract:

The phenomenon of epidemic,famines and droughts in the middle ages the repetitions of these events in historical books,geographical and juristical adventuves,transtionl books, scientific, biographic, and medical programs especially in morocco and andulisiya, asked talking care of this phenomenon and study it from all of its sides after the differs of authers about what they have been registered .According to the appearance and disappearance of this phenomenon and the had impacts that was left by it upon peoples mind causal them death and even migration from their cities. This was beside the hard impacts upon the political economical ,religious and social relationships(status),all these impacts caused the studying of plangue disease by andulisaya authors and writers who were mast of focusing upon it, in all different classifications, by defining these diseases epidimecs and the cause of their spreading. So as,defining the most influential diseases that faced morocco and andulisaya ,with showing the impacts they left upon the scientific and educational life according to Al Qalsadani adventures books.